أطروحات تاريخية جديدة حول مملكة دوتاو المسيحية

د. عـوض شـبّا

مركز بحوث ودراسات دول حوض البحر الأحمر -السودان

مستخلص:

تتناول هذه الورقة بصورة رئيسة بالتحليل مقالتين علميتين طرحتا مقترحات وفرضيات تاريخية جديدة ومهمة حول بدايات ونهايات مملكة دوتاو ، الأولي بعنوان: (تاريخ دوتاو اللاحق: فرضية تاريخية) لجيوفاني ر. روفيني من (جامعة فيرفيلد)، والثانية بعنوان:(ملاحظة قصيرة عن الملكة قاوا: آخر حاكم جديد معروفة لدوتاو (حوالي 1520-1526) (لآدم سيمونز (جامعة نوتنغهام)؛ وقد نشرتا في مجلة دوتاو للدراسات النوبة، وبعض الأطروحات الجديدة، التى قد تسهم في التعريف بهذه المملكة من حيث ظروف نشأتها وتطورها وأسباب وتاريخ نهايتها، وكذلك تسعى الورقة في محاولة استجلاء جوانب من نظامها السياسي وعلاقاتها الخارجية، وتأتي هذه الورقة كجزء من جهد بحثي يبذله الكاتب في سبيل دراسة هذه الحقبة التاريخية الهامة من تاريخ السودان.

الكلمات المفتاحية: أطروحات، تاريخية، مملكة، دوتاو، الصلات التاريخية

New Historical Dissertations on the Christian Kingdom of Dotawo

Dr. Awad Sheba

Abstract:

This paper primarily analyzes two scholarly articles that presented new and important historical proposals and hypotheses regarding the beginnings and ends of the Kingdom of Dotawo. The first is titled: “ Dotawo’s later dynasties: a speculative history« by Giovanni R. Ruffini from Fairfield University, and the second is titled: “A Short Note on Queen Gaua: A New Last Known Ruler of Dotawo (r? around 1520-6)” by Adam Simmons from the University of Nottingham. Both were published in the Dotawo: Journal of Nubian Studies. This paper also discusses some new dissertations that may contribute to defining this kingdom in terms of its origins, development, and eventual demise. Furthermore, the paper attempts to shed light on aspects of its political system and foreign relations. This paper is part of the author’s research effort to study this important historical era in the history of Sudan.

Keywords: theses, historical, kingdom, dotao, historical connections

بدايات مملكة دوتاو:

عقب إنهيار مملكة مروي في القرن الرابع الميلادي، نشأت حضارة في بلانة في النوبة السفلى ترجح بعض الدراسات أنها إمتداد للحضارة المروية، كما ظهرت على مسرح الأحداث في نفس الإقليم قوتان رئيسيتان هما: البليميين والنوباتيين، اللتان شكلتا هاجساً أمنياً في الحدود الجنوبية للإمبراطورية الرومانية في مصر، انتهي هذا الصراع والتنافس بقيام مملكة نوباتيا في القرن الخامس الميلادي أعقبتها في القرن السادس الميلادي قيام مملكتى المقرة جنوبها وعاصمتها دنقلا، وعلوة إلى الجنوب منها وعاصمتها سوبا، وفي القرن الثامن الميلادي اتحدت مملكتا نوباتيا والمقرة واتخذتا من مدينة دنقلا عاصمة للملكة المتحدة، التى إشتهرت باسم مملكة النوبة(خريطة، رقم 1).

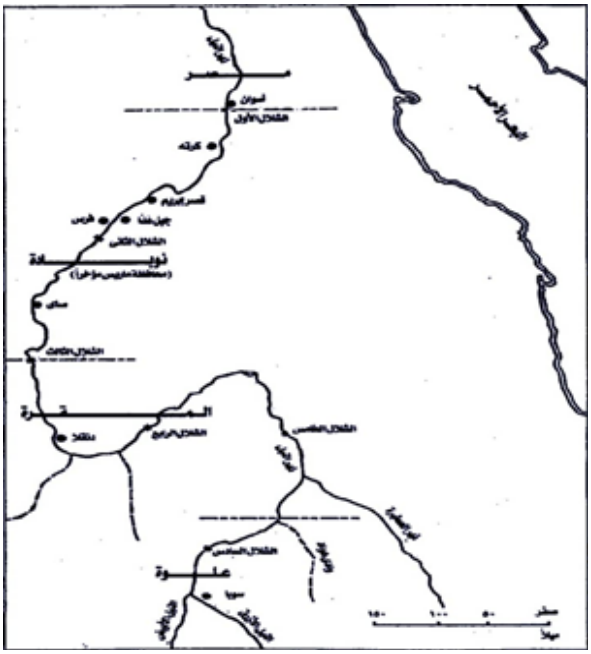

خريطة رقم(1)، توضح الممالك النوبية [1]

تردد ذكر اسم جبل الدو/دو في المصادر العربية من ضمن عدة مدن كان يتخذها صاحب الجبل، حاكم نوباتيا ونائب الملك، مقراً لحكمه ويتنقل فيها ربما لأسباب إدارية أو حربية، وهي: إبريم، نجراس(فرص)، بوسقا، الدو/دو، جزيرة ميخائيل [2]، ويري آدمز أن دو أو داو التي وردت في المصادر العربية وجبل عدا/ إدة هي منطقة واحدة، وعرف ملوكها بملوك دوتاو. أما عن معنى دوتاو، فتدل كلمة تاو في آخر الأسماء في اللغات النوبية الحديثة على «تحت أو أسفل»، وتطلق دائماً على أسماء الأمكنة لذا يبدو لذلك منطقياً أن أن دوتاو تعنى البلد أسفل دو[3]. وجاءت بعض التفاصيل عن مدينة الدو/ دو في إحدى الوثائق المكتوبة باللغة النوبية القديمة التى وجدت

فيها، وهي ثانى المواقع بعد قصر أبريم من حيث الأهمية والتى كشفت فيها وثائق ونصوص نوبية وثيقة، بينت الوثيقة جوانب مهمة من البنية الإدارية لمملكة النوبة ومقرها دنقلا ودور المسؤولين في مملكة نوباتيا وذكرت جبل دو/أدة كمركز إدارى مهم. كما سلطت الضوء على مدى تطور التطور الإداري، مقارنةً بالأنظمة الإدارية في منطقة البحر المتوسط، فيشير النص المذكور إلى أن المملكة النوبية كانت تتمتع بنظام إداري منضبط وفعال، ويدعم هذا الاستنتاج اكتشاف وثائق متنوعة، مثل الرسائل وقوائم العبيد وسجلات العقود. وتدل هذه الوثائق على مستوى من التفصيل الإداري وحفظ السجلات كان شائعا في الدولة البيزنطية ودول أخرى في منطقة البحر المتوسط.

وتوضح الوثيقة كذلك أسماء وألقاب عدة مسؤولين ومواقعهم الرئيسية على النحو :

1. إيبارخ النوبة: كان نائب الملك الذي يحكم نوباتيا نيابةً عن ملك المملكة النوبية المتحدة في دنقلا، ويقترح النص أن الإيبارخ ربما كان يقيم في قصر إبريم أو فرص.
2. دومستيكوس فرص: مسؤول آخر رفيع المستوى، ربما كان يقيم في قصر إبريم أو فرص، ويشير مصطلح دومستيكوس في السياق البيزنطي إلى قائد عسكري أو مدني، مما يوحي بدور مماثل في دنقلا.
3. أنتيبارخ النوبة: من المرجح أن هذا «نائب الإيبارخ» كان مقره في جبل دو/ أده، ويستشهد النص برسالة من الإيبارخ ماريانو إلى الأنتيبارخ مينا بخصوص العبيد الهاربين كدليل على ذلك، ومن الراجح أن الوثائق كانت تُصاغ في مكان محدد ثم تُرسل على حسب التراتبية الإدارية[4].

في عام1365م- على حسب رواية المقريزي- أرسل ملك دنقلا سفارة إلى السلطان محمد بن قلاوون لإبلاغه بأن ابن شقيق الملك قد ثار ضده، ولم تعط الأخبار اسم ملك دنقلا في ذلك الوقت، ولا اسم ابن أخته. ومع ذلك، قد ذكر بعض المؤرخين أسماء الرجال الذين أرسلهم الملوك كسفراء ركن الدين كربس (كرنبس، أو كدنبس؟)، الحاج ياقوت، الذي عمل كمترجم، وشخص آخر يدعى أرجون ملوك فارس الدين. وكتبوا أن ابن شقيق الملك، بمساعدة من بني الجعد، قد صمم على التمرد ومهاجمة العاصمة دنقلا عند وفاة الملك. وقد اختار الشعب ابن شقيق الملك المتوفي لخلافته، وتنفيذ كافة حقوق التتويج، وانسحب الملك الجديد لمدينة داو أو الدو، وهي جيدة التحصين، وربما كان في الانتظار للحصول على المساعدة من مصر. واغتصب ابن أخ الملك المرحوم عرش دنقلا، لكنه لم يكن يثق تماماً ببني جعد، وبعد دخوله المدينة، حاول طردهم بعيدا عنها. ودعا جميع أمراء القبيلة إلى وليمة في قصر الملك. وقام برسم خطة سرية لتكديس الحطب في جميع المباني المجاورة لبيت الضيوف. وأمر أتباعه عندما يحضر جميع زعماء القبيلة، بأن يحاصروا الأبواب والنوافذ بالخشب ويضرموا النار فيه. وتم تنفيذ الخطة بمهارة، ومن الذين حاولوا الخروج من القصر قتلوا منهم تسعة عشر أميراً وهرب آخرون، ثم قام الملك الغاصب بنهب مخازن دنقلا، وأخذ كل ما وجده في طريقه من كنوز وأموال، وهرب إلى داو وهناك تصالح مع الملك عمه بشرط أن يكون هذا الأخير هو ملك دنقلا على أن يتم الاعتراف به نائباً له.

تقول الأخبار أن الملك وابن أخيه طلبا من السلطان الحصول على مساعدة عسكرية من أجل طرد العرب من دنقلا، حتى يتمكنا من العودة إلى عاصمتهم، ووعداه أن يرسلا له مبلغاً معيناً من المال. وبعث لهما السلطات 3000 من الفرسان تحت قيادة أقتمر عبد الغني حاجب الحجاب، وتمكنت الحملة من تنصيب سليل العائلة المالكة القديمة على عرش دنقلا، وعوقب العرب بشدة لأنهم خلعوا الملك الشرعي. وتقدم أقتمر مرحلة بعد مرحلة. ووصل إلى قوص وقابل بني كنز، وطلب منهم أن يطيعوا السلطان ووافقوا على ذلك. في حين أن الجيش السلطاني كان يبحر ببطء في النيل نحو الشلال الأول، تقدم بعض العربان نحو داو وفرضوا حصارا على الملك النوبي هناك. وسرعان ما سمع أقتمر بذلك رسل قوة لإنقاد الملك. وتمكن هؤلاء الجنود من القبض على زعيم بني العكارمة وبني كنز، وطردوا العرب الآخرين الذين لجأوا لجزيرة ميخائيل وفي الإشتباكات التي تلت ذلك، تم قتل الكثير من العرب وغرق عدد كبير منهم؛ وتم أسر غيرهم مع نسائهم وأطفالهم. ومع ذلك، فإن جيش المماليك لم يتجه نحو دنقلا، خوفا من المواجهة مع بني جعد. ووافق حاجب الحجاب على قرار الملك النوبي على البقاء في داو. وعاد أقتمر إلى مصر، وأخذ معه عددا كبيرا من الأسرى وهدايا مقدمة من الملك النوبي إلى السلطان (5)؛ ليبدأ فصل جديد من تاريخ بلاد النوبة بإنتقال عاصمة المملكة المتحدة من مدينة دنقلا إلى مدينة الدوّ/دو، (صورة، رقم (1).

صورة رقم (1)، جبل أده/ دو، سنة 1910م(6)

يقترح جيوفاني ر. روفيني في مقاله بعنوان: «سلالات دَوْتاو الأخيرة.. فرضية تاريخية»:

معتمداً على منهج شرح فيها تشابك للأنساب الملكية لمملكة دَوْتاو والعلائق الرحمية للأسرة الحاكمة وأصولها، وذلك بتجميع الأدلة الأدبية والوثائقية والنقشية المتعلقة بالملوك النوبيين وعائلاتهم في الفترة من القرن الثاني عشر إلى القرن الرابع عشر الميلادي، ويعضد المقال أطروحة أن مملكة دوتاو تأسست في القرن الحادي عشر نتيجة لتوحد العائلات الحاكمة في مملكتي علوة والنوبة، وأن فترة ازدهار الثقافة النوبية التي امتدت من القرن التاسع إلى القرن الحادي عشر كانت تحت حكم سلالة واحدة، وفق نظرية الخلافة الوراثية في الممالك النوبية التى كانت المبدأ الأساسي للحكم ، ما عدا بعض الاستثناءات، لوراثة الحكم عن طريق الأم، مما يعني أن العرش ينتقل إلى ابن أخت الملك بدلاً من ابنه، وكان للملكة الأم (ngonnen) دور حاسم في هذا النظام.

تطلب إنشاء شجرة نسب للعائلات الملكية النوبية المتأخرة التركيز على أربع عائلات رئيسية كلها، تدور حول الملك النوبي داود الذي كان لديه عائلة متشابكة ومركة، طالما كان بعض أفرادها يتنافسون على العرش.

خلص المقال بعد دراسة مقارنة ومفصلة عن الصلات العائلية للأسر الملكية النوبية إلى أن مملكتي النوبة وعلوة كانتا تحت حكم سلالة عائلية واحدة وممتدة، والتي أطلقت على نفسها اسم مملكة دوتاو. وقدم عدد من الأدلة لتدعيم هذه الفرضية، وهي:

1. كان الملك موسس جورج في آواخر القرن الثاني عشر الميلادي يلقّب نفسه بـ(ملك دوتاو) عند الكتابة باللغة النوبية القديمة، بينما كان يصف نفسه بـ(ملك مكوريا(النوبة) وعلوة) عند الكتابة باليونانية، مما يشير إلى أن مملكة دوتاو كان الاسم الداخلي للمملكة الموحدة.
2. يُحتمل أن يكون الملك جورج الملك السابق لموسس، ووصفه تذكاره بأنه يجلس على عرش المملكتين، كان يرمز إلى حكمه الموحد على مملكتى النوبة وعلوة.
3. -3 لا توجد أدلة قوية على وجود ملوك مستقلين يحكمون مملكة علوة بعد القرنين التاسع أو العاشر الميلاديين، أما الملكان المزعومان في القرن الثاني عشر، وهما: باسيل وبول، فمن المحتمل أنهما لم يكونا حاكمين لمملكة منفصلة، حيث أن أحدهما كان موجوداً في دنقلا عاصمة مملكة النوبة، مما يدعم فكرة حكم مملكة علوة كجزء من كيان أكبر مثل مملكة دوتاو.
4. الملاحظ أن فترات الصمت عن بلاد النوبة في كتابات المؤرخين العرب قد تكون فترات استقرار داخلي في النوبة، مما يدعم فكرة وجود سلالة حاكمة مستقرة ومستمرة.
5. من الراجح أن عائلات الملوك موسس، داود، سمامون، كرينبس، رغم ظهورها كعائلات مختلفة، كانت في الواقع فروع لعائلة ملكية واحدة وممتدة حكمت مملكتي النوبة وعلوة الموحدتين حوالي أربعمائة عام(7).

هذه الأطروحة رغم أهميتها في تفسير الحالة السياسية في بلاد النوبة بعد القرن العاشر الميلادي، وتشير إلي ظهور مملكة دوتاو كنيجة لاتحاد مملكتي النوبة وعلوة، هي ما زالت في

بواكيرها وتحتاج لمزيد من الدراسات والأدلة الإضافية،وفي ذات المنحى هناك دراسة أخرى قام بها ولدجميزر قودليسكي تحليل لوحة جدارية وجدت في كنيسة بدنقلا ترجع إلى أواخر القرن الثالث عشر أو أوائل القرن الرابع عشر الميلاديين، وتعتبر هذه اللوحة أحدث رسم معروف لشخصية ملكية نوبية يعود تاريخه إلى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى، حيث رسم الملك وهو يرتدي تاجاً نوبياً على رأسه، وهو عبارة عن خوذة مقوسة مرتفعة تعلوها صليب وقرنان منحنيان للأعلى، وتتدلى من أطراف القرنين أربع قلادات، ويظهر طائان صغيران يجلسان بالقرب من الصليب، ويحمل في يده اليسرى صليب مربوط بوشاح، وفي اليمنى تاج صغير على الطراز البيزنطييعلوه صليب؛ إن رموز التيجان التي يحملها الملك في اللوحة، تُعتبر رموزاً مهمة لمكانته السياسية، حيث يُشير التاجان (النوبي والبيزنطي) إلى أنه كان حاكماً لكل من مملكتي النوبة وعلوة، والتى عرفتا بمملكة دوتاو، وهذه اللوحة في رأيه تدلل على اتحاد المملكتين مع الحفاظ على تقاليدهما الخاصة، بما في ذلك رموز السلطة الملكية. فشكل التيجان البيزنطية مغطاة بنقش حراشف السمك وتعلوها صليب، وأما التيجان النوبية تحتوي على قرون فوق الخوذة وهلال أو صليب في الأعلى(8)، (صورة، رقم4).

صورة رقم(2) لملك مجهول متأخر من دنقلا(9)

نهاية مملكة دوتاو:

إن آخر إشارة لملك من ملوك دوتاو موجودة حتى الآن ترجع لآواخر القرن الخامس عشر الميلادي، أما الفترة التى تلت عام 1484م وحتى العام 1520م فإن الأحداث في بلاد النوبة كانت غامضة نوعاً ما، ويبدو أن التحولات السياسية والاجتماعية والثقافية التدريجية والتى استمرت لفترات طويلة كانت في خواتيمها، وكانت مملكة دوتاو منذ ميلادها في خضم هذه المتغيرات، تصارع من أجل المحافظة على إرث المملكة النوبية المتحدة، ولكن الظروف المحيطة بها لم تكن مواتية بالقدر الكافئ للقيام بهذه المهمة العظيمة، لذا فمن الواضح أنها كانت تحاول فقط المحافظة على كيانها في محيط العاصمة وامتداداتها، في ظل الصراع الدائر في شمالها بين قبيلتا الجوابرة والغربية اللتان إستحوذتا علي البلاد من أسوان إلى وادى حلفا، ومن ثم مدتا سلطاتهما على عدد من القبائل الصغري التي استقرت على ضفاف النيل على حساب الكنوز، وفي رواية كاد الجوابرة يخضعون الغربية، فأرسلت الأخيرة سفارة إلى القسطنطينية في عهد السلطان العظيم سليم لمدهم بالعون في مواجهة أعدائهم، وأفلحوا في استدرار قوة منظمة من عدة مئات من الجنود البوسنيين تحت قيادة قائد إسمه حسن قوصى.

عقب فتحهم لمصر عام 1517م بسط الأتراك العثمانيون سلطانهم جنوب مجرى النهر إلى مدى بلغ الشلال الثالث، وقد شيد الجنود البوسنيون القلاع، أو بالأحرى أصلحوا المباني القائمة، في أسوان، وإبريم، وصاي ؛ أما الجزء الجنوبي للمملكة النوبية في المناطق التى كانت تحت نفوذ مملكة مقرة فقد خضعت بصورة من الصور لسلطنة الفونج التى قامت عام 1504م، وتشير الروايات، رغم ما يثار حولها من غبار التشكيك، إلى قتال دار بين العثمانيين والفونج في حنك شمال الشلال الثالث، بموجبه باتت هذه المنطقة حداً بين دوائر نفوذ الفونج والعثمانيين وهي تماثل إلى حد كبيرالحدود القديمة بين مملكتي نوباتيا والمقرة(10)، (خريطة، رقم(2)) .

خريطة رقم(2)، توضح الأملاك العثمانية والفونجية في القرن السابع عشر الميلادي(11)

وفي مقاله بعنوان:(ملاحظة قصيرة عن المملكة قاوا: حاكم جديد أخير معروف لمملكة دوتاو (حكمت حوالي 1520–1526؟) ناقش آدم سيمونز – رواية المؤرخ البرتغالي جواو دي باروس في تاريخه الإمبراطوري المسمى «العقدة الثالثة من آسيا» (Terceira Década da Ásia)، والمنشور عام 1563م. عن وجود مملكة نوبية أسمها قاوا في عشرينات القرن السادس عشر الميلادي. وكان باروس (1496–1570م) شخصية مركزية في شؤون الإمبراطورية البرتغالية طوال حياته، وتولى عدة مناصب مهمة، ويقول نص باروس:»وحتى وإن لم تُسمَّ باسم كنداكة، فإننا نعلم أنه في تلك النواحي التي ذكرناها، يُقال إن الملك الحالي لإمرأة، وليست قليلة القدر، ويدعوها الأحباش قاوا. وأراضيها،التي نسميها نحن النوبة ويسميها الأحباش نوبا، شاهد بعض رجالنا الذين ذهبوا إلى هناك الكثير من معابد المسيحية، وهي الآن في خراب على يد المسلمين، وفي بعض الجدران صور مرسومة للقديسين. وسبب هذا الخراب – كما قالوا – أنهم تُركوا من قِبل الكنيسة الرومانية، لأنهم كانوا محاطين بعدد كبير من المسلمين. وأثناء وجود رجالنا في بلاط (برستر يوحنا)، ومعهم السفير الذي أرسله دييغو لوبيز دي سيكيرا إلى ميناء أركيكو، أرسلت هذه الملكة قاوا، ملكة النوبيين، سفراءها إلى البرستر تطلب منه أن يرسل قساوسة ورهباناً لإصلاح شعبها، الذي ظل زمناً طويلاً بلا تعليم إنجيلي بسبب دخول المسلمين، حتى يمكنهم أن يكون لهم أسقف روماني كما كان في السابق. لكن البرستر أجاب بأنه لا يستطيع ذلك، لأنهم كانوا سلطة (أبونا) الذي تخضع له كل كنيسة إثيوبيا، وهو مُرسَل من بطريرك الإسكندرية الواقع بين المسلمين. ولم يصل أي خبر آخر عما جرى لهؤلاء السفراء الذين أرسلتهم قاوا.»، ثم عقد آدم سيمونز مقارنة بين هذا النص وما أورده فرانسيسكو ألفاريز، وهو راهب فرنسيسكاني برتغالي كان جزءًا من السفارة البرتغالية إلى إثيوبيا بين عامي 1520 و1526، والذي ذكر بعض الملاحظات عن شعب أسماهم النوبيين ونشره في تقريره أول مرة عام 1540م، ووجد وصفه التالي إهتماما كبيراً بين الأوساط العلمية:»إلى الشمال يحد هؤلاء الـ (Bellonos) قوم يُدعون نوبيين (Nobiis)، ويقولون إنهم كانوا مسيحيين من قبل، وأنهم كانوا خاضعين لحكم روما. وقد سمعت من رجل سوري من طرابلس يُدعى يوحنا السوري، رافقنا ثلاث سنوات في أرض (برِستر يوحنا)، وجاء معنا إلى البرتغال، أنه زار تلك البلاد، وأن فيها مئة وخمسين كنيسة، ما تزال تحوي صلباناً وصوراً للسيدة العذراء، وصوراً أخرى للقديسين مرسومة على الجدران، وكلها قديمة. وسكان هذه البلاد ليسوا مسيحيين، ولا مسلمين، ولا يهود، لكنهم يعيشون على أمل أن يصبحوا مسيحيين. وهذه الكنائس كلها تقع داخل حصون قديمة منتشرة في البلاد، وبعدد الحصون يكون عدد الكنائس. وأثناء وجودنا في أرض (برِستر يوحنا)، جاء ستة رجال من تلك البلاد كسفراء إليه، يطلبون منه أن يرسل لهم قساوسة ورهباناً ليعلموهم الدين. لكنه لم يفعل، وقال لهم إن (أبونا) في إثيوبيا يتبع بطريرك الإسكندرية، الواقع تحت حكم المسلمين، فكيف يمكنه أن يرسل لهم قساوسة ورهبانًا إذا كان الأمر بيد غيره؟ فعاد هؤلاء السفراء. ويقولون إنه في الزمن القديم كان كل شيء عندهم من روما، وأنه منذ زمن طويل مات أسقفهم القادم من روما، وبسبب حروب المسلمين لم يتمكنوا من الحصول على آخر، وهكذا فقدوا رجال الدين

وفقدوا مسيحيتهم. هؤلاء النوبيون يجاورون مصر، ويقولون إن في بلادهم ذهبًا كثيراً، وهي تقع قبالة سواكن القريبة من البحر الأحمر. وأراضيهم على جانبي النيل، ولكل حصن قائد، وليس لهم ملك بل قادة فقط».

رسم ألفاريز صورة مربكة لمملكة تبدو متفرقة وفي انحدار، لكنها قوية عسكرياً.كما تتطابق الروايتان في الإشارة لسفارة نوبية لإثيوبيا تطلب إرسال رجال دين، فمن المرجح أنهما يصفان الحدث نفسه. ولكن الإضافة المهمة في رواية باروس هو اسم قاوا، فمن المحتمل أن يكون بسهولة هذا الاسم صيغة لاسم أنثوي نوبي هو جاوي (ϭàγє)، المعروف من نص نوبي قديم يعود إلى القرن العاشر تقريبًا، يذكر امرأة تُدعى «زوجته جاوي» في سياق تذييل ترنيمة للصليب ونص لاهوتي عن المسيح. وعند نقله إلى البرتغالية، يمكن أن يتحول الاسم إلى قاوا، ويشير باروس بوضوح في نصه أنها حاكمة مسيحية في منطقة وادي النيل جنوب مصر. مما يستبعد أي نوع من الخلط بينها وبين حكام ممالك شرق أفريقيا، وبالرغم أنها الحاكمة النوبية المسيحية الوحيدة المعروفة في السجل التاريخي الباقي، إلا أنه من غير الواضح مدى تفرّد حكمها أو حتى مدى كونه أمرًا غير اعتيادي، نظراً للطبيعة المتجزئة لمعرفتنا بأسماء الحكام عمومًا. فحكمها يثير أسئلة حول مدى شيوع أن تتولى البنات أو بنات الأخوة العرش على نحو مماثل للأبناء أو أبناء الأخوة، سواء كوريثة وحيدة أو كمنافسة لذكرٍ على الحكم؛ ومن ناحية أخرى قد تكون قاوا قد عملت كوصية على العرش لصالح ملك صغير السن، وليست حاكمة كاملة الاستقلال، لكنها مع ذلك شخصية مارست سلطة كبيرة.

تضمن نهاية المقال الإشارة الي الجغرافية السياسية لمملكة دوتاو، فبعد أن نُقلت العاصمة من دنقلا إلى دو عام 1365م، فإن الأدلة الأثرية والنصية ليست حاسمة فى هذه المسألة، وتظل مفتوحة لاحتمال صياغة رواية جديدة - وهو ما قد تكشفه الأبحاث المستقبلية- يلاحظ في أواخر القرن السادس عشر الميلادي، كان أقصى وجود دائم للعثمانيين جنوبا يتمثل في جزيرة صاي، رغم أن نفوذهم أخذ يزداد جنوبا حتى حَنَّك. ومن ناحية أخرى، لا تشير أدلة التاريخية إلى أي هجوم بارز للفونج في الأراضي النوبية بعد سقوط سوبا، وحتى العقد الثاني من القرن السابع رعشر، مما ترك شريطاً على النيل – يشمل دنقلا – ربما امتد لمسافة نحو 170 ميلاً دون غزو. وبربط هذه الملاحظةبرواية رباوس عن الملكة قاوا، يمكن تصوّر استمرار وجود مملكة مسيحية تتمحور حول دنقلا، قائمة بين العثمانيين والفونج لمدة قرن على الأقل بعد 1504م، كما أن الأدلة الأثرية تشير إلى أن التطور العمراني الجديد في دنقلا بدأ يزداد توثيقه منذ منتصف القرن السابع عشر الميلادي، وربما يدل ذلك على تأخر نسبي في إخضاع دنقلا للفونج وتحويلها إلى مملكة تابعة لهم تحت حكام مثل الملك حسن ولد كشكش، إن هذه المعطيات قد تطرح أسئلة جديدة في هذا السياق لإعادة النظر حول التاريخ النوبي في هذه الفترة[12].

إضاءة حول الصلات الخارجية:

أحد الإشكاليات التى تعيق دراسة الأحوال الداخلية والعلاقات الخارجية لمملكة دوتاو هو عدم التوافق النهائى على مدلول وتوصيف مملكة دوتاو حتى الآن، ويناقش هاقن: هذه المسألة

على ضوء قراءته لعدد من وثائق قصر أبريم، حيث لاحظ أن الملك موسس جورج في الوثائق المحلية غالباً ما يوصف بأنه ملك دوتاو، ويربط بعض الباحثين اسم دوتاو بمدينة جبل عدا/دو بين قصر إبريم وفرس، ويقولون إنها كانت عاصمة لمملكة صغيرة وريثة للمقرة، بينما يرى آخرون أنه على الأرجح اسم نوبي للمملكة المتحدة (نوباتيا والمقرة)، وربما حتى علوة وغيرها، ويرجح الرأي الأخير، لأنه إذا كانت جبل عدا/دو، الواقعة في نوباتيا، هي دوتاوو، فكيف يمكن أن تذكر عدة نصوص نوبية قديمة أن فلاناً كان ملكا على دوتاو، ثم تليها العبارة: «وفي نوباتيا فلان كان أسقفاً على [...]»؟ هذا يوحي بأن نوباتيا تقع داخل دوتاو لا العكس!.ومن ناحية أخرى، قد يكون ملوك دوتاو(إذا كان المصطلح يشير فعلاً إلى منطقة جبل عدا/دو) ملوكاً على المملكة الكبرى أو النوبة العظمى، لكن الكتاب لم يكلفوا أنفسهم عناء ذكر ذلك في الوثائق المحلية في منطقة قصر إبريم؛ ومن الأدلة على هذا أن بعض الوثائق النوبية القديمة تذكر أن الحاكم هو ملك دوتاو، مثل ماجاء في النص رقم 30، التالي:»...أنا موسس جورج، الملقب بالملك، وابن أخت الملك داود، الذي يحمل أيضاً لقب ملك دوتاو...»[13].

يبدو أن عدم الدقة والوضوح في دلالة مملكة دوتاو كان له أثر في توصيف علاقات المملكة الخارجية معها وسببت نوع من الإرتباك عند تناوله من الكتاب الأوروبيين، والتى وجدت إهتماما كبيراً منهم، إذ لم يتم اعتماد مملكة دوتاو كاسم جغرافي دولي، وكذلك استمرت المصادر الإسلامية والعربية في الإشارة بشكل منفصل إلى المقرة ونوباتيا باسم مملكة النوبة وكذلك مملكة علوة، بالإضافة إلى مريس التي تطابق تقريباً مملكة نوباتيا في النوبة السفلى، بينما أشارت المصادر المسيحية اللاتينية إلى المملكة فقط باسم النوبة. لم تُظهر هذه المصادر أي وعي باسم دوتاو أو بأي خصوصية جغرافية أو سياسية إضافية قد تكون لديها، وبالتالي من غير المعروف بالضبط ما الذي فهمه المسيحيون اللاتينيون على أن النوبة، سواء كان مرادفاً لـ دوتاو أو كان يمثل بناءً إقليمياً سياسياً أو ثقافياً أكثر غموضاً، لذلك فإن مصطلح «العلاقات النوبية-المسيحية اللاتينية» كان هو الأنسب ليعكس النوبة الموثقة في العديد من مجموعات المصادر.

إن أهم جانبين يمكن تناولهما في إطار العلاقات الخارجية لمكة دوتاو السفارات الخارجية التى أشرنا لها لماماً أعلاه، وفي تقديرنا تحتاج لمزيد من المقارنات والتحليل. أما الجانب:الثاني علاقات مملكة دوتاو بالحملات الصليبية على الشرق الأوسط (1095-1402م)، بإعتبارها الظهير الشرقي أفريقي أو الغربي المجاور للأحداث وكذلك الجنوب المجاور للسلطنة المملوكية في مصر، ولكن لا توجد أدلة معاصرة لتك الفترة من النوبة توضح موقف مملكة دوتاو بخصوص أحداث الأراضي المقدسة، أو ما يربطها صراحةً بالحملات المسيحية اللاتينية؛ عموماًفإن معظم ما يمكن استنتاجه يأتي من نصوص مسيحية لاتينية أو من الخوف المتزايد من تحالف مسيحي كبير، والذي تلمح إليه بعض الروايات الإسلامية بالنظر إلى انشغال مصر الإسلامية المتزايد بمملكة دوتاو طوال الفترة المذكورة، ويجب أن لا يُنظر إلى الصراعات بين مصر الإسلامية ومملكة دوتاو المسيحية بمعزل عن هذه الأحداث فمثلاً يلاحظ تزايد وتيرة الحملات المملوكية على بلاد النوبة طوال ثمانينيات

القرن الثالث عشر، مما يشير إلى اهتمام مملوكي متزايد بحدودهم الجنوبية قبل هجماتهم النهائية على ما تبقى من الجيوب الصليبية ببلاد الشام في عامي 1289-1291م، فضلاً عن إدعاءات السلطان قلاوون بأن بلاد النوبة أصبحت تابعة له، ويلاحظ تواصل الإعتداءات المملوكية كما جاءت في المصادر العربية على بلاد النوبة منذ أواخر القرن الثالث عشر وطوال القرن الرابع عشر، وإستهدافهم المستمر لمملكة دوتاو، التى يمكن قراءتها في سياق الصراع الإقليمي الأوسع في الشرق الأوسط، ولتأكيد دور المماليك كقوة إقليمية مهيمنة[14].

إن طرح موضوع العلاقات الخارجية لمملكة دوتاو من الأمور المهمة في دراسة تاريخ هذه المملكة، وقد يلقى الضوء على أحوالها الداخلية بشكل غير مباشر، وهذا أمر يحتاج لجهد مضاعف، وربما تساعد على على ذلك إكتشافات جديدة في المستقبل حتى تتكامل رؤيتنا لهذه المملكة وسبر أغوارها العميقة لبناء سردية جديدة للفترة المسيحية في السودان.

خاتمة:

إن دراسة تاريخ مملكة دوتاو، التي ما زالت تحتفظ بالكثير من أسرارها وغموضها المثير لحفيظة الباحث الحاذق من الموضوعات التاريخية التى لا تزال محل جدل ونقاش في أوساط المختصين في التاريخ النوبي وتاريخ السودان الوسيط، ومن الواضح الدراسات التقليدية التي تركز على فترات النشأة والتطور والانهيار، قد لاتتيح لنا فك أغوار هذه الحضارة معقدة التركيب لندرة المصادر، لذا نحتاج لأدوات جديدة كما فعل صاحبا المقالتين، بفتح مسارات بحثية بديلة وجديدة بزوايا مختلفة بالتحليل والمقاربات لما هو متاح من معلومات. إن هذه المقترحات قد تفتح آفاقاً مستقبلية جديدة لمزيد من البحث حول بداية التظيمات السياسية في بلاد النوبة في فترة العصور الوسطى، وعلاقاتها الداخلية مع بعضها والخارجية مع دول الجواروعالم البحر الأبيض المتوسط ومدى تأثيراتها الإقليمية والعالمية،وكذلك بنيتها الإقتصادية والاجتماعية والثقافية،وإزالة الغموض مازال يحيط بالفترة المتأخرة للمالك النوبية المسيحية ونهايتها، ولعل ملاحظة أحياء اللقب النوبي (أورو) الذي يرادف لقب ملك، والذي مازال مستخدماً حتى اليوم لأمر مريح مبشر في هذا الإطار .

إن هذه الأطروحات والمقترحات التاريخية الجديدة بمناهجها وآلياتها العلمية الحديثة التى إستخدمت من أجل إعادة قراءة السرديات التاريخية التى تم اعتمادها منذ فترة طويلة عن تاريخ السودان في العصور الوسطى، لهو بحق باب جديد لإعادة قراءة وتحليل تاريخ العصور والمسيحية في السودان، لتقديم إطار بحثى يعيد صياغة تاريخ هذه الفترة. مما قد تتطلب جهوداً مشتركة ومضاعفة من مختلف التخصصات العلمية والجامعات والمركز البحثية.

المصادر والمراجع:

(1) وليـام آدمـز، النوبـة رواق إفريقيـا، ترجمـة: محمـود محجـوب التجـاني، ط2، (القاهـرة، 2005م)، ص387.

(2) مصطفي محمد مسعد، الإسلام والنوبة في العصور الوسطي، بحث في تاريخ السودان

(3) وحضارته حتى أوائل القرن السادس عشر الميلادي (القاهرة : 1960م)، ص142 .

(4) وليام آدمز، المرجع السابق، ص472.

Adam Łajtar, Old Nubian Texts from Gebel Adda in the Royal Ontario Museum

(5) https://digitalcommons.fairfield.edu/context/djns/article/1003/viewcontent/140528dotawo1_lajtar.pdf

(6) جيوفـاني فانتينـى، إعـادة أكتشـاف تاريـخ النوبـة القديم،(الخرطـوم: كليـة كمبـوني للعلـوم والتكلنولوجيـا،2013م)، ص190-191.

(7) https://en.m.wikipedia.org/wiki/File:Gebel_Adda.png

(8) Giovanni R. Ruffini, Dotawo's later dynasties: a speculative history

(9) Wlodzimierz Godlewski, The Last King of Makuia (Dotawo),2019.

(10) https://bibliotekanauki.pl/chapters/1052782

(11) Ibid Idem

(12) وليام آدمز، المرجع السابق، ص527-529.

(13) نفس المرجع، ص515.

(14) (12)Adam Simmons, 'A Short Note on Queen Gaua: A New Last Known Ruler of Dotawo (r. around 15206-)?', Dotawo: A Journal of Nubian Studies (2023), doi:10.5070/D60060625.

(15) (14)Joost,L. Hagen, Districts, towns and other locations of medieval Nubia and Egypt, mentioned in the Coptic and Old Nubian texts from Qasr Ibrim1,Sudan & NubiaThe Sudan Archaeological Research Society

(16) Bulletin No. 13 – 2009.

(17) (14)Post-classical history ,Home Post-classical history Nubia, Ethiopia, and the Crusading World, 10951402- Page 8

(18) https://www.google.com/url?sa=t&source=web&rct=j&opi=89978449&url=https://erenow.org/postclassical/nubia-ethiopia-and-the-crusading-world-10958/1402-.php&ved=2ahUKEwjtuZi7246PAxXYKvsDHRzvHMU4RhAWegQIE